(٣٧)

مسألة فى خلق الافعال

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن الافعال التي تظهر في اجسام العبادعلى ضربين :

أحدهما : أجمع المسلمون على أنه فعل الله تعالى لاصفة للعبد فيه ، مثل ألواننا وهيآتنا وطولنا وقصرنا وسمننا وهزالنا وحركة عروقنا .

والضرب الاخر : مثل قيامنا وقعودنا وحركتنا وسكوننا وأكلنا وشربنا وما أشبه ذلك من تصرفنا . واختلف الناس في ذلك :

فقال أهل الحق : كل هذا التصرف فعل العباد انفردوا به لاصنع لله تعالى فيه وان كان هو المقدورلهم[1] عليه .

وقالت المجبرة : هذا الضرب أيضاً من فعل الله تعالى ، وذهبوا الى أن جميع الافعال التي تظهر في العالم الله تعالى أوجدها وفعلها ولافاعل سواه ،

---

١) ظ : مقدرهم .

وأنه لافعل للعبد من طاعة ولامعصية ولاخير ولاشر .

والذي يدل على أن العباد يفعلون ويوجدون بخلافه[1] ماذهب اليه المجبرة انا وجدنا من الافعال الظاهرة فيهامايصح بحسب تصورهم ودواعيهم وأحوالهم ويرتفع بحسب صوارفهم وكراهتهم وأحوالهم .

ألاترى أن أحدنا [اذا] قصد الى الاكل وأراد وعزم عليه ، وقع منه اذا كان صحيحاً غير ممنوع. وقد يقصد غيره الى الاكل: فلا يجب أن يأكل هو وكذلك متى جاع واحتاج الى الطعام وحضر الطعام ، أكل اذا كان على ذلك قادراً غيرممنوع. ولايجب أن يأكل هومتى جاع غيره، فلولا أنه محدث الاكل وموجده ماتعلق بقصده وداعيه وحاجته، ويجري مجرى أكل غيره ، لما لم يكن فاعلا له لم يقصد تصوره وحاجاته .

ولولا أن هذه الافعال التي أشير اليها أفعالنا ، لم يجب أن يقع بحسب حاجاتنا وأحوالنا ويقف على دواعينا ،كما لم يجب ذلك في ألواننا وهيآتنا وحركة عروقنا .

ألاترى أن أحدنا [يريد أن يكون على هيئة، فيجب على خلافها و][2] يريد أن يكون على هيئة ، فيجد نفسه على خلافها . ويريد أن يكون طويلا وهوقصير وشاباً وهو شيخ ، وصحيحاً وهو مريض . فلوكان القيام والقعود مثل الطول والهرم والصحة والمرض ، لكانت أحكام الجميع واحدة في الحصول بحسب دواعينا [أوخلاف ذلك] [3] فلما اختلف حكم الجميع علمنا اختلاف حكمها في الاضافة الينا .

---

١) ظ : بخلاف .
٢) كذا في النسخة والظاهر أنه تكرار .
٣) كذا والظاهر زيادة العبارة .

دليل آخر : ومما يدل أيضاً على ذلك أن الله تعالى قد أمر العباد بأفعال كثيرة ، كالايمان والطاعة من الصلاة والصوم وسائر العبادات ، فلولا أن هذه الافعال لهم وواقعة من جهتهم وليست بأفعال الله تعالى، لما جاز أن يؤمروا بها.

ألاترى أنه لايحسن أن يأمره بطوله وقصره ولااسوداده ولابياضه، لما لم يكن ذلك أيضاً فعلاله . والقول في دلالة النهي كالقول في دلالة الامر ، لان الله تعالى قدنهاهم عن المعاصي والكفر وضروب القبائح ، ولايجوز أن ينهاهم عن فعله تعالى وعماليس بفعل لهم .

دليل آخر : ويدل أيضاً على ذلك ، أنا وجدنا العباد يحمدون ببعض الافعال التي يظهر منهم ، ويذمون ببعض آخر . ألاترى أنهم يمدحون بفعل الطاعات وأداء الواجبات، يمدحون على الاحسان والانعام والافضال، ويذمون بالمعاصي والقبائح .

فلولا أن ذلك من أفعالهم لما توجه اليهم مدح ولاذم ،كما لايحسن ان يمدحوا ويذموا بألوانهم وهيآتهم وخلقهم ، ولاعلى مايقع من غيرهم من الافعال .

دليل آخر : ويدل على بطلان قول المجبرة في اضافتهم جميع الافعال الى الله تعالى، أن أفعال العباد ماهو كفر وظلم وقبيح وكذب، فلو كان الله تعالى هو الفاعل لذالك ، لوجب أن يكون من حيث فعل الظلم ظالماً ، وبفعل الكفر كاذباً [1] ، وبفعل القبيح مقبحاً . لان اللغة تقتضي هذا الاشتقاق للفاعل .

ألاترى أنه تعالى من حيث فعل العدل يسمى عادلا، وبفعل الاحسان والانعام يستحق محسناً أومنعماً. ولاوجه لتسميته بأنه منعم وعادل الاأنه فعل هذه الافعال

---

١) ظ : كافراً .

فلو كان فاعلا لماسواها لاشتق له منها اسم الفاعل على ما ذكرناه .

واجتمعت الامة على أنـه تعالى لايستحق الوصف بأنه ظالـم ولا كاذب ولا كافر ، [و] أن من وصفه بذلك وسماه به كان خارجاً عن الدين ، واجماع المسلمين حجة ان ينفي كونه فاعلا لما يوجب هذا الاشتقاق ويقتضيه .

دليل آخر : ومما يدل أيضاً على ذلك ـ وان كان معناه داخلا فيما تقدم ـ أن الامـة مجمعة على أن الله تعالى يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين ، فلولا أن الايمان والكفر من فعل المؤمن والكافر ، لم يحسن الثواب ولا القبيح ، لانـه قبيح أن يثاب أو يعاقب أحد .

ألاترى أن أحدنـا لو فعل في عبده فعـلا من الافعال ، لما حسن أن يعاقبه عليه ويؤاخذه به ، ومن فعل ذلك عد ظالماً سفيهاً .

دليل آخر : ويدل على ذلك أنـه تعالى لو فعل الظلم والكذب وسـائر القبائح ، لم يكن ذلك منه قبيحاً على ما يقوله مخالفونا ، لانه لا نأمن أن يقع منه تصديق الكذابين ، وان [1] لم يكن ذلك منه قبيحاً ، لانه لا نأمـن أن يفعل بعض القبائح ، لما لـم نأمن أن يفعل سائرها . واذا أجزنا منه تعالى البعض ، جاز الكل ، وهذا يبطل الثقة بصدق الانبياء عليهم السلام ويقتضي الشك في جميع الشرائع والخروج من دين الاسلام ، بل من سائر الاديان .

دليل آخر : ويدل على ماذكرنا أن القول بأن الله تعالى هو الفاعل للافعال الظاهرة من العباد ، يقتضي أنـه لانعمة له تعالى على الكافر ، واذا لـم تكن له عليه نعمة ، لم تجب عبادته على الكافر ، لان العبادة كيفية في الشكر فانما يجب بالنعم العظيمة ، ومن لا نعمة له فلاشكر يستحقه ولاعبادة .

---

١) الظاهر زيادة « و » .

وانما قلنا أنه لانعمة له على الكافر، لانه خلق على مذاهبهم فيه الكفر الذي يستحق به الخلود في النار والعقاب الدائم ، فهوبأن يكون مسيئاً اليه أولى من أن يكون منعماً عليه .

وليس لهم أن يقولوا أن له عليه نعمة دنياوية ،كخلق الحياة فيه والشهوات المؤدية الى ضروب اللذات والمنافع العاجلة ، وذلك أن خلق الحياة والشهوة اذا كان الغرض الاستدراج الى الكفر لم يكن نعمة ، وانما يكون نعمة اذا كان الغرض فيه النفع، ويجري مجرى من سمن عنزة وغذاه بضروب الأطعمة الملذة ليأكله في أنه لايكون منعماً عليه بذلك وأن النفع به في العاجل .

وأيضاً فلوسلم أن ذلك نفع لما عادل ولاقارب الاستقراء والعقاب والخلود في النيران المضرمة ، فلايستحق عليه شيء من الشكر والحال هذه ، ويكون وجوده كعدمه ، ويجري مجرى من نقص ثواباً عن ثواب غيره وابتسم في وجهه ، ثم قرن ذلك بقتل أولاده وأحبائه وأخذ أمواله وانتهاك حرمه ، في أنه لايستحق منه شكراً .

واذا تأملنا القرآن وجدنا اكثره دالاعلى أن العباد يفعلون ويعملون، وأنهم انما يجازون بثواب أوعقاب على أفعالهم ، لاعلى أفعال غيرهم فيهم ، فيقول تعالى « جزاءاً بما كانوا يعملون »[1] وفي مواضع أخر « يصنعون »[2] و «يفعلون»[3] و«يكسبون»[4]، فلو كانت الافعال كلها له بطلت هذه الاضافات الينا و كانت كذباً.

---

١) سورة الواقعة : ٢٤ .
٢) سورة المائدة : ١٤ وغيرها .
٣) سورة المائدة : ٧٩ وغيرها .
٤) سورة البقرة: ٧٩ وغيرها .

ويدل أيضاً على ما ذكرناه قوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »[1] وهذا صريح بأن السيئة منا لامنه .

وليس لهم أن يقولوا في الحسنات والطاعات ، وهي عندكم فعل العباد ، فكيف أضافها الله تعالى الى نفسه . لان الطاعة وان كانت من فعلنا ، فقديصح أن يضيفها الله من حيث التمكين فيها والتعريض لها والدعاء اليها فيها ، وهذه أمور تحسن-هذه الاضافة . ولايجوز ذلك فيالسيئة ، لانه تعالى نهىعنهاومنع من فعلها وفعل كل شيء يصرف [2] عن فعلها .

فأما قوله تعالى «وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندكقل كل من عندالله» [3] فلايعارض ماذكرناه ، لان المراد بالسيئة هاهنا الامراض والمصائب والقحط، لان قريشاً كانت اذا نزل بها خصب وخفض قالوا : هذا من عندالله ، واذانزل بهم شدة ومجاعة قالوا : هذا شؤم محمد ـ حاشا له من ذلك ـ فبين تعالى أن ذلك كله من الله تعالى .

وقوله تعالى « وان منهم لفريقاًيلوون ألسنتهمبالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عندالله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » [4] ولو كان من خلق الله لكان من عنده على آكد الوجوه .

وقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الاليعبدون » [5] يدل على صحة ما نذهب اليه من وجهين :

---

١) سورة النساء : ٧٩ .

٢) ظ :يوجب فعلها .

٣) سورة النساء : ٧٨ .

٤) سورة آل عمران : ٧٨ .

٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

أحدهما : أنه تعالى أضاف العبادة اليهم ، فلو كانت مخلوقة فيهم لاضافها اليه تعالى لاباليهم .

ومن الوجه الاخر: أن هذا القول يقتضي أن غرضه في خلقهم أن يعبدوه، لان اللام في قوله تعالى « ليعبدون » هـي لام الغرض ، بدلالة قولهم « جئتك لتكرمني وقصدتك لتنفعني » أي غرضي في قصدك الاكرام والنفع .

وليس يجري هذا الكلام مجرى قوله « ولقد ذرأنـا لجهنم كثيراً من الجن والانس »[1] لان تلك اللام لام عاقبة، وجارية مجرى قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً »[2] ونحن نعلم أنهم انمـا التقطوه ليكون لهم صديقاً سنيا[3] ، وأخبران العاقبة لمـا كانت هي العداوة أدخلت هذه اللام فيه ، ويجري ذلك مجرى قول الشاعر :

فللموت تغـذو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن

وقوله :

لدوا للموت وابنوا للخراب

ولايجوز أن يكون اللام في قوله « ليعبدون » لام عاقبة لالام غرض ، لانه لو كانت كذلك لكانت العبادة شاملة للجن والانس وواقعة من جميعهم ، اذكانت اللام منبئة عن عاقبتهم . ومعلوم أن في الجن والانس كثيراً من لايعبدالله ويجحده ولم يقر به ، فعلمنا أنه لام غرض .

فان قالوا : كيف يجوز أن يقع من العباد مالم يقضه الله تعالى والمسلمون

---

١) سورة الاعراف : ١٧٩ .
٢) سورة القصص : ٨ .
٣) ظ : أنيساً .

يأبون ذلك ويطلقون أنه لايخرج من قضاء الله شيء .

قلنا : القضاء في لغة العربية على وجوه :

أحدها : أن يكـون بمعنى الاعلام العلم ،كقوله تعالى « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً »[1] وانما أراد الله تعالى الاعلام بغيرشبهة .

فعلى هذا الوجـه لايخرج شيء من قضاء الله ،كما لايخرج من معلومه ، وأنت اذا وصفت على من أطلق من أهل الحمد والسلامة لم يقسر[2] الا بالعلم دون غيره .

وقد يكون القضاء بمعنى الامر ، قال الله تعالى « وقضى ربك ألا تعبـدوا الاایاه »[3] ومعلوم عند جميع المسلمين أن المعاصي والكفر ليسا مما أمر الله تعالى، بل نهى عنه وحذروزجر. وأحد من المسلمين لايقول ان الله تعالى أمر بالماصي والقبائح. ولاشبهة في أن الله تعالى ماقضى بجميع الكائنات على هذا الوجه ، لانه تعالى ما أمر بجميعها .

ومن وجوه القضاء الحكم والالزام ، من قولهم « قضى بكذا وكذا » اذا ألزمه ، ومعلوم أن الله تعالى ماحكم بالظلم ولاألزمه . وهذاالوجه غير عام من وجوه القضا[4] هو العلم .

فان قيل: كيف يجوزأن يكون العبد فاعلا والله فاعل، وهذا يقتضي الشركة.

قلنا : العبد وان كان فاعلا ، فبأقدار الله تعالى على الافعال وتمكينه منـه ،

---

١) سورة الاسراء : ٤ .

٢) ظ : لم يفسر ، وبعده بياض فى النسخة .

٣) سورة الاسراء : ٢٣ .

٤) فى الهامش : وبرة القضاة .

وفعله تعالى فيه القدرة والالات وجميع مايحتاج اليه في الافعال ، والله تعالى قادر على أفعاله بنفسه من غير مقدور[1] ولاممكن بلاتشابه . ولووجب بهذا القدر التشابه ، لوجب اذا كان أحدنا موجوداً وحياً وعالماً ، وكان الله تعالى بهذه الصفات أن يكون متشبهاً ونظيراً . تعالى الله عن ذلك .

واذافرقوا بين الامرين بما يرجع الى كيفية استحقاق أحدنا لهذه الصفات وأنه يخالف كيفية استحقاقه تعالى لها ، رجعنا الى مثل ذلك في كون أحدنا صرفارقته[2] لكونه تعالى .

وهذه جملة كافية انشاء الله، والحمد لله رب العالمين .

---

١) ظ : مقدر .

٢) كذا .